مریم ــ رضا

فقدان

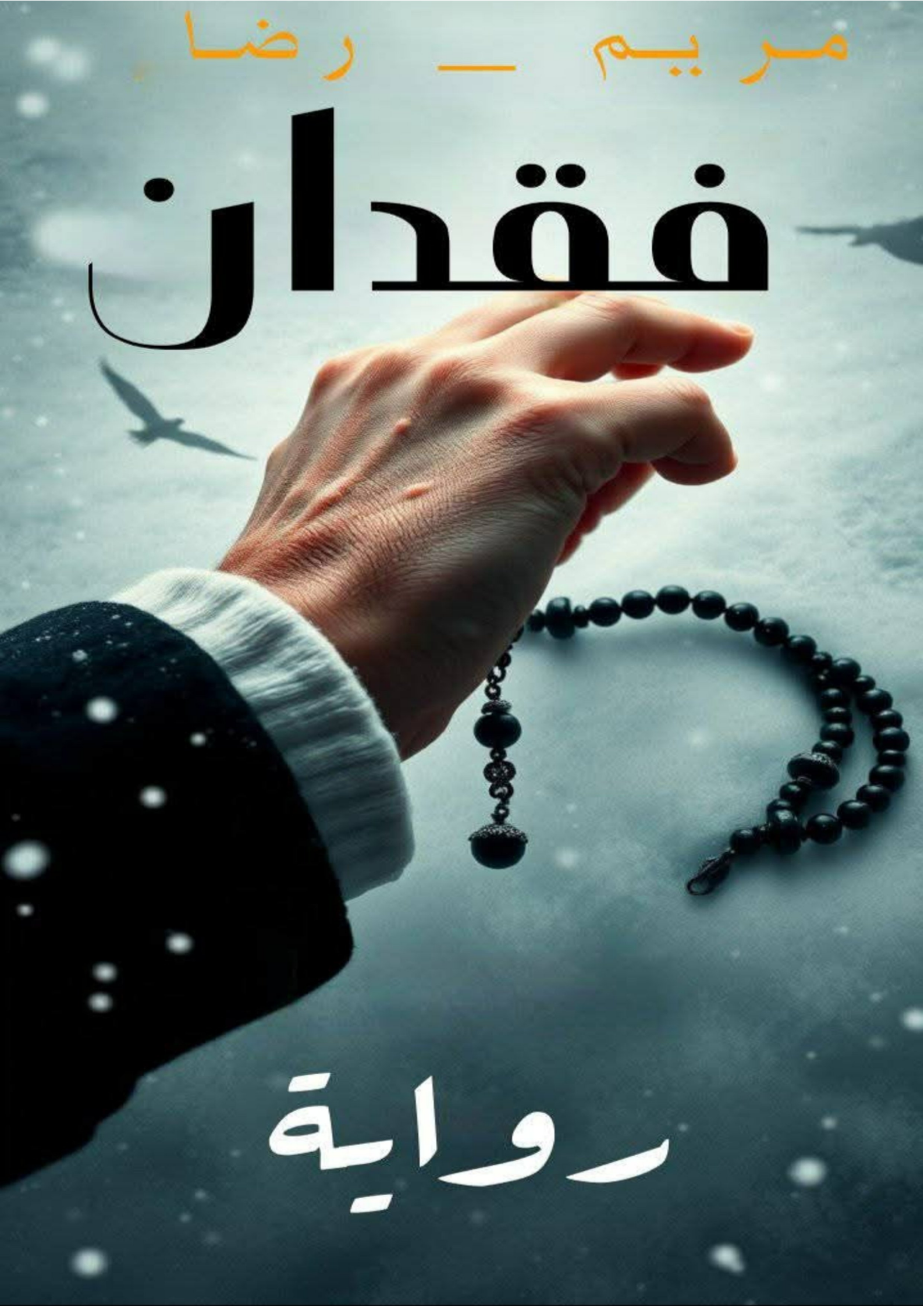

رواية

الفصل الأول

هناك فتاة تأتي كل ليلة لرجلٍ عجوز يعيش بين جدران المنزل الذي يكاد أن ينهار، وفي يومٍ مليءٍ بالبرودة وسقوط الأمطار والثلج في الخارج، قام ذلك الرجل بإشعال شمعة وبدأ يقترب من المقعد الخشبي، أمسك العجوز كوبًا من الماء وقام بوضعه جانب الشمعة، وبدأ بلف نفسه بشالٍ قديم حتى يقوم بتدفئة جسده من شدة البرودة.

وعندما جاء منتصف الليل، كانت الأجواء على ما يرام، اختفت الأمطار ولكن ما زال الثلج في أنحاء المدينة، وبداخل منزل العجوز وبين الخشب الذي يملأ المنزل كان يجلس الرجل ينتظر أحدًا ما! ولكن لم يأتِ أحد حتى الآن! وبعد مرور الوقت، وبعد انتظار الرجل لأحد الأشخاص الذين ينتظرهم، قام بسكب الماء على تلك الشمعة التي أشعلها،

فأصبح المنزل يحيطه الظلام، ويحيط بالرجل كل الحزن لعدم مجيء الفتاة!

كان ينتظرها، ولم تأتِ!

اقترب من الأريكة قائلًا:

لا أعلم لماذا لم تأتِ ابنتي؟

ولكن أعلم أنكِ بخير!

يجب أن أخلد إلى النوم... ابنتي، تصبحين على خير؟

ينتظر من ذلك العجوز؟

ومن ابنتك؟

ومن الفتاة التي تتحدث عنها؟

ولماذا تعيش داخل منزل صغير وفارغ من كل شيء؟

أين عائلتك أيها العجوز؟

عودة إلى الماضي

في منزل كبير تعيش فيه عائلة صغيرة، كانت الأم تستيقظ مبكرًا وتقوم بإعداد الطعام لزوجها وابنتها الصغيرة.
واستيقظ الأب وبدأ يتجه نحو زوجته قائلًا:

صباح الخير؟

قالت ميرا:

صباح النور سام. صحيح، لقد جاء أحد من معارفك وترك لك جوابًا!

سام بتعجب:

من أتى؟ وأين هو ذلك الجواب؟

قالت ميرا:

لا أعرف ذلك الرجل، لكنه غريب، ليس من المدينة!

ذهب سام وأخذ الجواب وبدأ يقرأ الرسالة التي بداخله، حتى صرخت ابنتهما الصغيرة بصوتٍ عالٍ، ففزع والداها. ترك سام الجواب قبل أن يكمله وبدأ هو والأم في الاقتراب من غرفة ابنتهما، لكن لم تكن موجودة حينها!

صرخت ميرا قائلة:

ابنتي! ابنتي! أين أنتِ؟ سام، أين ابنتي؟

صرخ سام قائلًا:

ماريان! صغيرتي، أين أنتِ؟ صغيرتي؟

لم تكن موجودة داخل المنزل، وبدأ الأب يشك في أنها قد اختُطفت. جلس سام على المقعد وجلست بجانبه ميرا وهي تبكي قائلة:

سنجلس دون أن نعلم أين ابنتنا؟

نظر إليها قائلًا بغضب:

انتظري، دعيني أفكر.

نظرت إليه ولم تتحدث، حتى أمسك بالجواب وبدأ يقرأه مرة أخرى. وأثناء قراءته الرسالة وقف سام وهو يمسك الورقة بيديه قائلًا:

ماذا تقول؟ وكيف؟

نظرت إليه ميرا قائلة:

ماذا سام؟ ماذا يوجد؟

قال لها:

ابنتي... ابنتنا يا ميرا!

قالت بصوتٍ عالٍ:

تحدث سام!

قال:

لقد أخذها أحدهم وترك تلك الرسالة، ويقول إنه غادر المدينة ولن يعود أبدًا!

صرخت قائلة:

ماذا؟! من يتجرأ ويفعل ذلك؟ وكيف أخذ ابنتي من المنزل؟ سام، أريد ابنتي! سام، أخبر الشرطة، يجب أن نجد ابنتنا!

نظر إليها وهو يتجه نحو الهاتف ليقوم بالاتصال بمركز شرطة المدينة، لكن لم تكن هناك حرارة بالهاتف! فصرخ قائلًا:

لا تمزحي معي أنتِ أيضًا! ميرا، لا يوجد حرارة! سنذهب إلى مركز الشرطة، أسرعي!

وبعد أن خرج سام وميرا متجهين نحو المركز، كان سام قد نسي أن الطعام على النار، فاشتعلت النيران بكل شيء في المنزل حتى احترق بالكامل وأصبح رمادًا.

وفي مركز الشرطة، وأثناء تقديم الشكوى بأن ابنتهما خُطفت، وأن من قام بذلك ترك رسالة يخبر أنه أخذها ولن يعود إلى المدينة، دخل أحد الجيران يبحث عن سام. وعندما رأى ميرا واقفة بجانبه صرخ قائلًا:

سام! سام!

نظر إليه سام بتعجب قائلًا:

انتظر قليلًا!

صرخ الرجل مرة أخرى:

سام، انظر إلي! لقد احترق منزلك يا صديقي! أعتذر، لم نستطع إطفاء النيران قبل أن تحرقه بالكامل!

نظرت ميرا قائلة:

ماذا تقول؟! لا، لم يحدث ذلك! لقد تم اختطاف ابنتي، لا تقل إن المنزل قد احترق!

نظر سام إليه قائلًا:

متى حدث ذلك؟ وكيف؟

قال الرجل:

عند خروجكم من المنزل، جاء أحد الرجال ووقف أمامه وكأنه يبحث عن شيء، ثم غادر، وبعدها اشتعل المنزل مباشرة!

جلس سام على المقعد وهو يبكي قائلًا:

ماذا يحدث؟ ومن ذلك الرجل الذي يلحق بنا الأذى دون سبب؟ ميرا، ماذا سنفعل الآن؟

جلست بجانبه قائلة:

اهدأ سام، سوف نجد ابنتنا. لن نعود قبل أن نجدها. أما عن المنزل، فقد كان به ذكريات كثيرة مع ابنتنا يا سام.

جاء أحد العساكر قائلًا:

يجب أن تذهبا، وسوف نخبركما بكل شيء إن حدث جديد.

نظر إليه سام قائلًا:

نذهب؟! تخبرني أن أذهب دون ابنتي؟! يجب أن تعلموا من الذي فعل ذلك! لقد احترق المنزل أيضًا! إلى أين نذهب؟

قال العسكري:

حسنًا، انتظر هنا حتى المساء، لكن بعدها ستغادر.

جلس سام بجانب ميرا وهو يسند كتفه على رأسها قائلًا:

أعتذر يا ميرا، لم أستطع حماية ابنتي.

قالت له وهي تبكي:

لا تتحدث هكذا سام، لم يكن بيدك شيء. لقد أخذها ذلك الرجل دون علمنا. سام، سأذهب إلى صديقتي لأخذ ملابس لي ولك، لا يمكن أن نظل بهذه الملابس.

قال لها:

حسنًا، لكن عودي قبل الليل.

خرجت من المركز متجهة نحو صديقتها، وظل سام جالسًا في مركز الشرطة. لم يعد يهمه إن كان المنزل قد احترق، المهم أن يجد ابنته، فهي كل شيء.

وعند عودتها من عند صديقتها إلى المركز، صدمتها إحدى السيارات عمدًا! لقد ماتت!

وفي مركز الشرطة، جاء أحد العساكر إلى سام قائلًا:

المرأة التي كانت معك منذ قليل، هل هي زوجتك؟

تعجب سام قائلًا:

نعم، لقد ذهبت إلى مكان وستعود. لماذا تسأل؟

قال العسكري:

أعتذر، ولكن زوجتك ماتت. لقد صدمتها إحدى السيارات عمدًا في أحد الشوارع، وقد تأكدنا من ذلك من الكاميرا بالخارج.

نظر سام إليه مذهولًا دون أن يتحدث، ثم قال:

ميرا؟ زوجتي ماتت؟ وابنتي اختفت؟ ومنزلي احترق؟

ابتسم ساخرًا ثم صرخ بصوتٍ عالٍ:

تبًا لكم! وتبًا لذلك الرجل الذي لا أعرف من هو!

خرج يبكي بين الشوارع المظلمة حتى وصل إلى المكان الذي كانت فيه زوجته، وهو يقول:

ميرا، استيقظي! سنذهب ونجد ابنتنا! ميرا، استيقظي، هيا! لن تتركيني وحدي، صحيح؟ ميرا!

لم يدرك حتى الآن أنه فقد زوجته وابنته وكل شيء في يوم واحد. مسكين سام، لقد أخذت الحياة كل شيء منه بلا رحمة.

وبعد أن دفن جثة زوجته، صرخ على قبرها قائلًا:

ميرا، سأجد ابنتنا! لا تخافي عزيزتي، سأجدها بالتأكيد!

عاد مرة أخرى إلى مركز الشرطة ينتظر خبرًا جديدًا، لكنه لم يجد شيئًا. ولا أحد يعلم كيف اختفت ابنته.

رجع إلى المنزل المحترق، ولم يبقَ منه سوى غرفة صغيرة بجانبه يعيش فيها. لم يجد العون من أحد، والجميع ابتعد عنه بعد ما جرى. جلس في هذا المكان سنين طويلة ينتظر خبرًا من الشرطة عن ابنته، لكنه لم يأتِ.

وكانت تأتيه ميرا الصغيرة في أحلامه كل ليلة، يلعب معها وينتظرها بعد منتصف الليل يشعل الشمعة ويجلس ليتحدث إليها، بعد أن فقد ميرا زوجته.

لكن في النهاية، سام أيقن أن هناك أشياء ثمينة نفقدها بلا عودة: أشخاص مقربين، وذكريات رقيقة. البعض يصنع لنفسه وطنًا مليئًا بالحب، لكن سام قرر أنه لا وطن له دون زوجته وابنته.

الفصل الثاني

وفي يومٍ اشتدَّ الطقس، وكانت الأمطار تتساقط بطريقةٍ غريبة، حتى كاد منزل سام الصغير أن ينهار. بدأت الأمطار تتساقط من سقف منزله، حتى إنه أخذ بعض الآواني ووضعها تحت كل مكانٍ تسقط منه المياه، فإذا امتلأت حملها وأفرغها في الشارع.

مسكين سام، لا يعلم متى تنتهي الشتاء ليعيش في منزله بسلام. حتى إن أحد الرجال أعطاه سترةً جلدية كي لا يموت من شدّة البرد. ومع مرور الوقت انتهت الأمطار وبدأ الطقس يعتدل. وفي الساعة السابعة مساءً أتى أحد الرجال يبحث عن سام، وبدأ يسأل الجيران عنه، حتى وقف أحدهم قائلاً:

- أتسأل عن سام المجنون؟ إنه هناك، بداخل ذلك المنزل المهدوم!

اقترب الرجل من منزل سام، ودخل دون أن يستأذن. فصرخ سام قائلاً:

- ابنتي؟ ماريان؟

ظن أن ابنته قد عادت، لكن حين وقف الرجل أمام الضوء وظهرت ملامحه، نظر سام إليه قائلاً:

.من أنت؟ وكيف دخلت إلى المنزل؟

ابتسم الرجل قائلاً:

.اهدأ، أنا هنري. لقد دخلت من الباب، كان مفتوحًا يا رجل. جئت عندما سمعت ما حدث معك. كيف حالك؟

ابتسم سام بمرارة قائلاً:

.كيف حالي؟ تسأل عني أنا؟ أنا لستُ أنا! ماتت زوجتي، وابنتي اختفت، وتسألني كيف حالي! عرفتَ الآن، أليس كذلك؟ اذهب من هنا، لقد اقترب الليل ويجب أن أستعد!

نظر إليه هنري متعجبًا:

.تستعد؟ لماذا؟

اقترب سام منه قائلاً:

.يا رجل، أقول لك ابنتي آتية... اذهب من هنا!

قال هنري:

.لكن ابنتك قد اختفت كما أخبرتني.

فصرخ سام:

.اخرج من هنا! ابنتي آتية، ماذا تريد؟!

وبدأ سام بدفع الرجل إلى الخارج وهو يصرخ، حتى قال هنري بصوتٍ عالٍ:

- أنا أعلم أين ابنتك!

توقف سام في مكانه، ينظر إليه بدهشة، وقال:

- ماذا؟ كيف؟ أين هي ابنتي؟ تحدّث! أنت من أخذتها؟ أين؟

قال هنري:

- اهدأ أولاً... إنها ليست في المدينة، إنها في مكانٍ آخر!

قال سام بلهفة:

- أريد أن أذهب إليها، يجب أن أراها. كيف أصبحت؟ أخبرني، كيف صار شكلها؟

قال هنري:

- ستعلم كل شيء، لكن يجب أن تأتي معي إلى منزلي.

قال سام متعجبًا:

- لماذا؟

قال هنري:

- تريد أن ترى ابنتك وأنت في هذه الحالة؟ انظر إلى نفسك!

نظر سام إلى ثيابه المهترئة وقال:

ـ نعم، معك حق. السنين مضت ولم أبدل ملابسي. لكن انتظر... كيف أعلم أنك لا تكذب عليّ؟

قال هنري:

ـ لن أكذب عليك. لقد بحثنا عن ابنتك حتى علمنا أين هي. لا تخف، أنا شرطي سابق، ولا أظن أنك لن تصدق شرطيًا؟

ابتسم سام قائلاً:

ـ لا نضيّع الوقت... يجب أن نذهب، ولكن...

صرخ هنري:

ـ ماذا بعد؟

قال سام:

ـ المنزل... أخاف أن يسرقه أحد، سوف تحزن ميرا!

ابتسم هنري قائلاً:

ـ لا تخف، سأترك أحد الرجال هنا. لكن يجب أن نذهب.

خرج سام مع الشرطي، واقتربا من السيارة. عندها صرخ أحد الرجال:

ـ أيها المجنون! هل ما زلت على قيد الحياة؟

فنظر سام إليه بغرور قائلاً:

- اصمت أيها الوغد!

تعجب هنري من ردّه وقال:

- ما زلت تصرخ؟ ادخل إلى السيارة، هيا!

وبدأت الرحلة بالنسبة لسام، وكل ما يفكر فيه هو: كيف سيخبر ابنته أنه لا يزال حيًّا، وأنه يحبها كثيرًا، وكيف كانت والدتها تحبها أيضًا. كان يخشى ألّا تتعرف إليه ابنته ماريان، فقد مضت سنون طويلة على ما حدث... كل ما يشغل باله:

متى ينتهي ذلك الطريق، حتى يرى ابنته ماريان.

الفصل الثالث

وبعد أن أصبحت الشمس ساطعة، وأحاط الهدوء مدينة الفقد، حيث كان سام وهنري قد أنهيا رحلتهما في تلك المدينة، بدأ القلق يتسلل إلى قلب سام، فنظر إلى هنري قائلاً:

.هنري، هل ابنتي هنا؟

ابتسم هنري وقال:

.لا، ليست في هذه المدينة!

صرخ سام في وجهه قائلاً:

.حسنًا، لماذا توقفت بالسيارة إذن؟

قال هنري متعجبًا:

.لم نأكل شيئًا منذ يومين يا رجل. سوف نأكل في ذلك المطعم، وبعدها نكمل الطريق. اهدأ.

نظر سام إليه وقال:

.تأكل! لم أتذوّق الطعام منذ شهور! أنا أريد ابنتي فقط!

اقترب هنري منه قائلاً:

.أتعلم يا سام؟ لم أرَ أحدًا يحب ابنته مثلك. كنت أتمنى أن يكون لي فتاة، أو حتى ولد صغير، لكنني لم أرزق بهم... حتى زوجتي...

ثم صمت فجأة، وبدأت عيناه تدمعان. فنظر إليه سام قائلاً:

- ماذا حدث لزوجتك؟

قال هنري بصوت منخفض:

- تم قتلها!

نظر إليه سام وهو يقول:

- وأنا أيضًا... زوجتي قُتلت. ولكن لا بأس، لا تبكِ. إنهم معنا دائمًا، في قلوبنا وذكرياتنا. الزوجة والأولاد والعائلة هم أجمل ما قد يحصل عليه الإنسان. عندما علمت منك أن ابنتي لا تزال على قيد الحياة عاد الأمل إلى قلبي... اشتقت إليها كثيرًا.

ابتسم هنري والدموع في عينيه قائلاً:

- معك حق... هم أجمل ما في الحياة.

فقال سام بغضبٍ لطيف:

- لن نجلس ونتحدث حتى المساء، هيا بنا، لقد أصبحت جائعًا!

ابتسم هنري وقال:

- يا رجل، بدأت أعجب بك... هيا بنا، المطعم قريب.

بدأ سام يعود شيئًا فشيئًا إلى حياته القديمة، وبدأت نظرته إلى المستقبل تتغير بعد أن علم أن ابنته على قيد الحياة. كما أصبح هنري أقرب إليه. دخل الاثنان إلى المطعم، فنظر هنري إلى المقاعد، ثم لمح على اليسار مقعدًا فارغًا، فجلسا معًا يتأملان بعضهما. كل واحدٍ منهما غارق في ذكريات عائلته وما مرّ به.

اقترب خادم المطعم وقال:

- ماذا أحضر لكما؟

فقال هنري:

- أريد طبقًا من اللحم مع الخضار، وكأسًا من الشراب.

ثم نظر إلى سام: وماذا تطلب أنت؟

قال سام:

- أريد طبقًا من اللحم، وطبق سلطة، وصحنًا من المعكرونة بالدجاج... وأريد شرابًا أيضًا!

ضحك هنري قائلاً:

- ستأكل كل هذا وحدك؟

ابتسم سام قائلاً:

- نعم، أنا جائع يا هنري!

ذهب الخادم لتحضير الطعام، وبينما كان سام يغرق في أفكاره، قال هنري:

ـ يا رجل، لا تفكّر كثيرًا. ستنهك نفسك إن ظللت غارقًا في التفكير طوال اليوم. لم يتبقَّ سوى دقائق لترى ابنتك، يجب أن تهدأ.

قال سام وهو يتنهد:

ـ أتعلم؟ أنا لا أفكر إلا في شيء واحد... كيف أصبحت ابنتي؟ هل ما زالت تتذكر والدها؟ هل يمكن أن تسامحني؟

قال هنري:

ـ إن كانت تتذكرك، فطبيعي أن تسامحك. الإنسان حين يحب، لا يستطيع أن يحقد أو يحزن من أحبّه، حتى لو ليوم واحد. صدقني، ابنتك ستسامحك، وستجتمع بها قريبًا.

ابتسم سام، وأخذ ينظر من النافذة، غارقًا في تلك اللحظة التي سيعود فيها ليضم ابنته ماريان.

وبعد أن انتهيا من الطعام، خرج سام وهنري ليتوجها إلى السيارة... فلم يجداها!

تعجب هنري وقال:

ـ أين السيارة؟ سيارتي!

صرخ سام قائلاً:

- ماذا تقصد؟ هل سُرقت؟ كيف سنذهب إلى ابنتي الآن؟

قال هنري وهو يضرب كفًّا بكفّ:

- اصمت يا رجل! السيارة اختفت... من الذي فعل ذلك؟

بدأ يسأل بعض الرجال في المكان عن السيارة، لكن لم يعرف أحد أين ذهبت أو من أخذها. عاد هنري إلى سام وقال بصوتٍ مكسور:

- تلك السيارة كانت هديةً لزوجتي يوم زفافنا... وبعد موتها احتفظت بها. إنها ذكرى زوجتي يا سام!

فقال سام محاولًا تهدئته:

- اهدأ الآن، سوف نجد السيارة، ونذهب إلى ابنتي!

فقال هنري:

- يجب أن نذهب إلى مركز الشرطة ونقدّم بلاغًا. وبعدها نكمل طريقنا. لا داعي أن ننتظر، سنجد وسيلة أخرى. هيا بنا.

ثم تمتم ساخرًا بمرارة:

- كان معه حق ذلك الرجل الذي أطلق على هذه المدينة اسم "مدينة الفقد"... فقدتُ سيارتي للتو! تبا لكم!

الفصل الرابع

وفي منتصف الليل، ومع برودة الطقس التي لا تهدأ، خرج سام ومعه هنري من المدينة في إحدى السيارات التي تنقل الخضار والفواكه الطازجة، وكانت السيارة متجهة إلى مدينة أخرى. من حسن حظهما أنهما وجدا سيارة متجهة إلى نفس المكان. ومع مرور الوقت تغيّر عقرب الساعة حتى صباح اليوم التالي، حين بدأت الشمس تشرق بضوئها الذي غطّى السيارة التي يجلس فيها سام وهنري.

قال سام وهو ينظر إلى هنري:

ـ هنري، متى نصل إلى ابنتي؟

ابتسم هنري قائلاً:

ـ سام، لم يتبقَّ إلا القليل... انتظر بضع ساعات أخرى.

قال سام:

ـ حسنًا، لقد انتظرت سنواتٍ طويلة، لن أعدم الصبر لبضع ساعات.

وبعد قليل نظر سام مرة أخرى إلى هنري قائلاً:

ـ هنري، عندما أرى ابنتي... ماذا ستفعل أنت؟

قال هنري:

.سأجد أبًا آخر يبحث عن ابنته أو ابنه وأساعده، كما فعلت معك يا سام. أنت لا تعلم كم أشعر بالسعادة حين أرى عائلة تجتمع من جديد، ويكون لي دور في ذلك!

ابتسم سام قائلاً:

.هل تأخذ المال مقابل ما تفعل؟

ضحك هنري بصوت عالٍ وقال:

.لا يا سام، لكنني سأأخذ منك أنت!

نظر إليه سام بغضب وقال:

.ولماذا أنا؟ لا أملك ثيابًا، ولا منزلًا جيدًا، ولا عملًا حتى أملك المال!

قال هنري:

.لهذا السبب بالذات سأجد لك عملًا جيدًا وراتبًا أيضًا.

ابتسم سام قائلاً:

.ومن الذي يوافق أن أعمل عنده؟

قال هنري مبتسمًا:

.أنا! أريد أحدًا بجانبي في عملي.

ابتسم سام بسخرية قائلاً:

- أنت؟ وماذا سأفعل معك؟

قال هنري:

- ستكون مساعدي... أحتاج إلى رفيق. من الصعب أن يعيش الإنسان وحيدًا يا سام، وأنت تعلم ذلك الشعور جيدًا، أليس كذلك؟

قال سام:

- حسنًا، سأفكر... لكن أولًا أريد أن أرى ابنتي.

ابتسم هنري قائلاً:

- حسنًا، حسنًا...

ظل الحديث بينهما حتى اقتربت السيارة من المدينة، وبعد دقائق قال السائق:

- أيها الرجال، لقد انتهى الطريق. هيا، أريد العودة إلى المطعم.

صرخ سام بلهفة:

- ابنتي! ابنتي! لقد أتيت! أسرع يا هنري، أسرع!

نزل سام من السيارة، ولحقه هنري قائلاً:

- سام، انتظر يا رجل!

بدأ هنري يسير في أحد شوارع المدينة حيث تعيش ماريان، وكان سام يسير خلفه هامسًا:

- سأجد ابنتنا يا ميرا... سنجدها.

وقف هنري أمام منزل متواضع يضيئه مصباح خافت، وكان واضحًا أن من يسكنه أناس فقراء. طرق الباب، ففتحت فتاة صغيرة وقالت:

- من أنتم؟

قال سام بلهفة:

- هل أنتِ ماريان؟ صغيرتي... هل أنتِ؟

أمسكه هنري قائلاً:

- سام، اهدأ وانتظر قليلًا. ثم التفت إلى الفتاة قائلاً:
- صغيرتي، هل والدك في المنزل؟

قالت:

- نعم.

قال هنري:

- حسنًا، أخبريه أننا نريد التحدث معه.

دخلت الفتاة إلى المنزل، لكن سام تبعها وهو يتلفت يمنةً ويسرة يبحث عن ابنته. فقال له هنري:

ـ سام، لماذا دخلت؟ انتظر حتى يأتي الرجل!

قال سام متأثرًا:

ـ سنوات طويلة يا هنري، لم أرَ ابنتي إلا في أحلامي... والآن هي هنا، تعيش هنا يا هنري!

حينها دخل الرجل صاحب البيت وقال مستغربًا:

ـ من أنتم؟

قال سام:

ـ مرحبًا، أنا سام، وهذا هنري... نحن نبحث عن ابنتي!

قال الرجل متعجبًا:

ـ ابنتك؟ لا أفهم ما الذي تتحدث عنه!

قال سام بعصبية:

ـ ماذا تقول؟ ابنتي هنا... أنت من أخذتها! أين هي؟

تدخّل هنري قائلاً:

ـ كم عدد الفتيات التي أنجبتها؟

ابتسم الرجل قائلاً:

.أنجبت ثلاث فتيات وأربعة أولاد.

قال هنري:

.وأين زوجتك؟

أجاب الرجل:

.لقد ماتت منذ سنوات.

سأله هنري:

.كم مضى على موتها بالتحديد؟

قال الرجل متوترًا:

.هل تحقق معي؟ من أنت؟

أجابه هنري:

.أنا شرطي سابق. أخبرني، كم مضى على موت زوجتك؟

قال الرجل:

.مضى عشرة أعوام وبعض الشهور... لا أتذكر بالضبط.

قال هنري:

.حسنًا، أين أولادك الآن؟

قال الرجل:

- إنهم نائمون. لكن لن يستطيع أحد أن يأخذهم مني!

فقال هنري بصرامة:

- أريد أن أراهم جميعًا، الآن... وإلا أخذتك معي إلى مركز الشرطة.

تردد الرجل ثم قال:

- حسنًا، حسنًا...

دخل الرجل إلى الداخل، وبدأ سام يتوتر، فنظر إلى هنري وقال:

- ماذا تفعل؟

ابتسم هنري قائلاً:

- انتظر... تبقى القليل.

خرج الرجل ومعه أولاده، جميعهم كبار، إلا فتاة صغيرة تبلغ عشر سنوات، كانت تبتسم بخجل.

فقال هنري للرجل:

- كم عمر هذه الفتاة الصغيرة؟

صرخ سام باكيًا:

- ماريان؟! إنها ابنتي! هنري، إنها تشبه والدتها كثيرًا!

قال الرجل:

.لا أعلم...

قال هنري بحدة:

.تكلّم وإلا...

قال الرجل:

.عشر سنوات.

ابتسم هنري قائلاً:

.سام، إنها ابنتك! حين ماتت زوجتك، هل أنجبت هذه الطفلة من تحت الأرض أيها الرجل؟!

فقال الرجل مضطربًا:

.أيها الشرطي... ليست ابنتي. لقد تركها أحدهم أمام باب منزلي ليلًا، وأنا من ربيتها... لم أفعل شيئًا، صدقني.

نظر هنري إلى سام وقال:

.سام... أين أنت؟

التفت فرأى سام يحتضن الطفلة بقوة، ويقول بصوتٍ مرتجف:

ـ ابنتي... لقد وجدتها يا ميرا، لقد وجدتها! ماريان، أنا والدك... هل تتذكرينني يا صغيرتي؟ سنعود إلى منزلنا... والدتك سعيدة الآن، لقد وجدتك!

ثم التفت إلى هنري قائلاً:

ـ أشكرك يا هنري... أشكرك!

ابتسم هنري وقال:

ـ لا بأس... أنا سعيد لأنك وجدتها. والآن، ستعمل معي أيها الرجل المجنون!

ابتسم سام قائلاً:

ـ نعم، نعم... موافق. يجب أن أعمل من أجل ابنتي. سنجد منزلًا جديدًا، وعملًا جديدًا... سأفعل كل شيء من أجلك يا ماريان. لكن... لماذا لا تتكلمين معي؟

قال الرجل:

ـ إنها مريضة...

قال هنري بقلق:

ـ ماذا؟ ما بها؟

أخذه الرجل جانبًا وقال بصوت منخفض:

- إنها مصابة بالسرطان... تموت ببطء. لم يتبقَّ لها إلا القليل.

سمع سام، فانفجر صوته:

- ماذا؟! هذا غير صحيح! أنت تكذب!

لكن هنري خفض رأسه والدموع في عينيه، فيما ظل سام يحدّق في ابنته.

وفجأة قالت الطفلة بصوتٍ رقيق:

- أبي... لماذا تصرخ؟

شهق سام وهو يقول:

- أبي؟! لم أسمع هذه الكلمة منذ سنوات... وأخيرًا اجتمعنا، ابنتي! اشتقت إليك كثيرًا. حتى لو لم نَعِش طويلًا معًا، يكفي أنك معي الآن. هيا، يجب أن نذهب.

قال هنري للرجل:

- هل هناك دواء تأخذه؟

قال الرجل بحزن:

ـ لا... لم يعد هناك دواء. فقط احترسوا منها في الطريق، فهي ضعيفة جدًا.

قال هنري:

ـ حسنًا... وداعًا.

فقال الرجل بصوت عالٍ:

ـ ماريان... ستذهبين دون أن تودعيني؟

ابتسمت الفتاة، وذهبت لتعانقه قائلة:

ـ وداعًا يا أبي... لقد أصبح لي والدان الآن، لكنك ستظل الأفضل عندي.

قال سام:

ـ ماريان... يجب أن نذهب.

ثم التفت إلى الرجل قائلاً:

ـ أشكرك لأنك اعتنيت بابنتي.

ابتسم الرجل قائلاً:

ـ لا تضربها، ولا تفعل ما يحزنها... إنها طيبة جدًا.

خرج سام ومعه ابنته ماريان من المنزل، وقد عادت الطمأنينة إلى قلبه بعد أن وجدها، وكل هذا بفضل هنري... صديقه الوحيد ورب عمله الجديد.

الفصل الخامس "الأخير"

وفي يومٍ جديدٍ مليء بالحبِ والسرور، كان سام يجلس داخل السيارة وفي حضنه ماريان، لم يستوعب أن الفراق قد انتهى، وأن الحزن لن يكون له مكان بعد الآن. أصبح هنري جزءًا من حياة سام الجديدة وصديقًا أيضًا.

وفي دقائق قليلة، وفي منتصف الطريق، أخذت ماريان نفسًا عميقًا وبدأت بالتعب، حتى نظر سام إليها قائلاً:

"ابنتي؟ ماذا حدث؟ هل أنتِ بخير؟"

قال هنري:

"من الواضح أنها مريضة للغاية، سام! ماريان؟ ماريان، تحدّثي معنا، هل أنتِ بخير؟"

نظرت إلى والدها قائلة بصوتٍ منخفض:

"لم أرك منذ سنوات يا أبي، كنت أشتاق إليكم كثيرًا، وبعد أن رأيتك... يبدو أنها النهاية، أحبك يا أبي".

صرخ سام قائلاً بصوتٍ عالٍ:

"ماريان! لا تتحدثي هكذا، أنتِ بخير، لن أبتعد عنكِ مرة أخرى، ستكونين بخير"!

وبدأت تلتقط أنفاسها الأخيرة قائلة:

"أحبك يا أبي"!

صرخ سام وهو يبكي:

"لا! لا يا ابنتي، ماريان! لا تتركيني وحدي، حبيبتي لا تتركيني"!

بدأ هنري ينظر إليها بحزن شديد وقال لسام:

"أعتذر منك يا سام... لقد ماتت ابنتك".

قال سام وهو يهتز غضبًا وحزنًا:

"لا، لم تمت! إنها بخير، اصمت أنت يا هنري! إنها بخير... ماريان!

استيقظي! لقد تركتني والدتك وأصبحت وحيدًا، لا تتركيني أنتِ أيضًا... ماريان؟"

وبعد وقتٍ مرّ وكأنه لا ينتهي، وصل سام أخيرًا إلى منزله القديم، خرج من السيارة وهو يحمل جسد ابنته ويبكي بحرقة. بدأ الناس ينظرون إليه بدهشة، أولئك الذين لطالما وصفوه بالمجنون لأنه كان يرى ابنته كل ليلة في أحلامه، وها هو الآن يحملها بين ذراعيه، ومن خلفه هنري يقف إلى جانبه حتى في أكثر لحظاته ألمًا.

دخل سام إلى المنزل ووضع ابنته على الأرض وصرخ قائلاً:
"ميرا... لقد عادت ابنتنا! إنها هنا... ميرا، إنه جسد ابنتنا فقط! لم تعد موجودة معي... ماريان، ابنتي"!

قال هنري بحزن عميق:
"سام، يجب أن تدفن ابنتك... لا يجب أن تبقى أكثر من ذلك".

قال سام وهو يبكي بحرقة:
"لم أستطع أن أجلس معها... لم أستطع أن أخبرها كم كنت أشتاق إليها... لم تعد موجودة يا هنري".

قال هنري:
"أعلم، ولكن إن بقيت أكثر فسوف تتعفن يا سام. إن كنت تحبها، فاتركها... يجب أن تُدفن الآن".

قال سام:

"نعم... نعم... يجب أن نذهب إلى ميرا. يجب أن تُدفن هناك بجانب والدتها، ستكون سعيدة بهذا. يجب أن تعلم ماريان كم أحبتها والدتها... هيا، هيا".

خرج سام وهنري معًا بعد أن هدأت الأمور قليلًا، متجهين إلى قبر زوجته ميرا ليدفن جثمان ابنته. انفجر سام بالبكاء عندما رأى قبر ميرا أمامه وصرخ قائلاً:

"ميرا! لقد عادت ابنتك! لقد أخبرتك من قبل، صحيح؟ الآن سنتركها بجانبك... احتفظي بها".

بدأ هنري ومعه أحد الرجال بوضع الجثمان في القبر، وبعد أن انتهى، خرج هنري ليحتضن سام قائلاً:

"لست وحدك، أنا بجانبك... يجب أن نذهب الآن".

قال سام وهو يلهث من البكاء:

"نعم... نذهب. يجب أن تتحدث ماريان مع والدتها... إنها تريد منا الذهاب. حسنًا ميرا، سأذهب... نسيت أن أخبرك، هذا هنري صديقي... هو من وجد مكان ابنتنا".

نظر سام إلى هنري وقال:

"إنها تشكرك كثيرًا يا هنري... حسنًا، وداعًا... وداعًا عائلتي الصغيرة".

عاد سام إلى المنزل ومعه هنري، فقال له هنري:

"سام، لن تجلس في ذلك المنزل مرة أخرى، ستأتي معي ونعمل سويًا، لن أتركك وحدك بعد الآن".

قال سام:

"وعائلتي يا هنري؟ لا أستطيع أن أترك ميرا وابنتي وحدهما"!

قال هنري:

"ومن قال إنك ستتركهم؟ إنهم بداخلك... بداخل قلبك. هذا يكفي... كلما أردت أن تراهم، انظر إلى قلبك... إنهم معنا دائمًا".

قال سام:

"نعم... إنهم معي في كل وقت، ولن أتركهم أبدًا".

قال هنري:

"هل هناك شيء تريد أن تأخذه معك من المنزل؟"

قال سام وهو يبتسم بحزن:

"كنت أريد أن آخذ عائلتي... لكن لا يوجد... لا يوجد".

خرج هنري من المنزل ومعه سام متجهين إلى مكانٍ جديد... مكان فيه عمل وسعادة. لم تنتهِ رحلة هنري وسام... بل إنها تبدأ الآن.

وعلى طريق طويل، وقف هنري بالسيارة وقال لسام:

"إن كنت قد فقدت عائلتك، فأنا فقدت زوجتي... أنت فقدت منزلك، وأنا فقدت حياتي بأكملها. الآن لا أريد شيئًا سوى أن نبدأ من جديد يا سام".

ابتسم سام وقال:

"من الصعب أن نفترق عن أشخاص مقربين من قلوبنا يا هنري، ولكن مع مرور الوقت يتغير كل شيء... تعود الروح إلى الجسد، يعود النبض إلى القلب، وتعود الصداقة إلى مكانها. أنتَ الآن رفيقي الوحيد، وأتمنى ألا تتركني".

ابتسم هنري بصوتٍ عالٍ وقال:

"سام... هنري... معًا الآن"!

وبدأت السيارة تتحرك بسرعة، وبدأت أوراق الشجر تتساقط، وبدأت رحلة البحث عن المفقودين من جديد... على يد **سام وهنري**.

تمّت بفضل الله.

النهاية

"مريم رضا"